من رجَّال إلى ريَّال: تغيُّر لهجة الفتيات البدويات في قطر

أ.د. رضوان أحمد، أستاذ في اللغويات قسم الأدب الإنجليزي واللغويات، كلية الآداب والعلوم – جامعة قطر

هبة الكبابجي، منسق برنامج التعليم، مؤسسة الفيصل بلا حدود، الدوحة، قطر

سعينا للإجابة على سؤال بسيط لكنه ينطوي على دلالة عميقة ونادرًا ما يتم توثيقه: كيف أعادت الفتيات البدويات في دولة قطر صياغة ممارساتهن اللغوية بينما أسَّسن هُويَّة اجتماعية جديدة من خلال التفاعل المتزايد مع المجتمعات الحضرية والوافدين الأجانب الآخرين في المدارس والجامعات وأماكن العمل؟

النسيج الاجتماعي واللغوي في دولة قطر

بشكلٍ رئيسي، يتكون سكان دولة قطر من مجموعتين رئيسيتين تُعرفان بالحضر، أهل الحضر المستقرين، الذين جرت العادة على انخراطهم في مِهن من قبيل الصيد والغوص بحثًا عن اللؤلؤ، والبدو الذين يعيشون في الصحراء وترتبط مهنتهم الأساسية بتربية الإبل والأغنام. ومنذ اكتشاف النفط في القرن العشرين، مما أطلق العنان لمشروعات التحديث والتوسع العمراني على نطاق واسع، تغيرت الأنماط المعيشية لكلتا المجموعتين بصورة جذرية. فلم يَعد أهل الحضر والبدو منخرطين في مِهنهم التقليدية، ولم تَعد كل مجموعة تعيش في عُزلة عن نظيرتها. واليوم، يعيش القطريون في منازل حديثة، ويقودون أحدث السيارات، ويعملون جنبًا إلى جنب مع غيرهم من القطريين والوافدين من العرب والعجم في مكاتب حديثة. ومع ذلك، لم تزل لهجاتهم العربية ذات الصلة تظهر سمات مميزة، ويتجلى أبرزها في حرف «الجيم» بالعربية الفصحى في كلمات مثل «رجَّال»، الذي يعني «رجل» فينطقه أهل الحضر «ريَّال» في حين ينطقه البدو «رجَّال».

ما أهمية اللهجات؟

اللغة العربية في دولة قطر، كما الحال في بقية دول العالم العربي، ليست لغة واحدة. فإلى جانب العربية الفصحى التي تستخدم في اللغة الرسمية المنطوقة والمراسلات الكتابية في المكاتب الحكومية والمدارس والجامعات والخطاب الديني، توجد العديد من الفروق المرتبطة بالتراث والأصول القبلية. وفي حين يستخدم سكان قطر اللغة العربية الفصحى في السياقات الرسمية، فإنهم يفتخرون بالتحدث بلهجاتهم الخاصة في تفاعلاتهم الاجتماعية اليومية للتعبير عن الهُويَّة وفي إقامة العلاقات. وعلى الرغم من ارتباطها الوثيق، تختلف هذه اللهجات بشكلٍ طفيف لكنه مميز.

وبالإضافة إلى الاختلافات بين نُطق «رجَّال» و «ريَّال»، هناك العديد من الكلمات والتعبيرات الرئيسية الأخرى التي تُميز أهل الحضر عن البدو. فعند التحدث إلى امرأة، على سبيل المثال، يستخدم البدو الكلمة «إسميش/ إسميس» أي «اسمك»، في حين ينطق أهل الحضر الكلمة «إسميتش»، أي يغيرون الصوت الأخير إلى «تش» كما في الكلمة الإنجليزية «chat». وكذلك فالكلمة الدالة على «أريد» ينطقها البدو «أبغي» (مع الصوت «غ» الصادر من الحنجرة) في حين ينطقها أهل الحضر «أبي». وتكشف هذه الفروق عن هُويَّة الشخص كشفًا تامًا وأين ينتمي أو حيث يرغب في الانتماء.

ولعقود تَحرك القطريون بين هذه الفضاءات الاجتماعية مع القليل من الاختلاط. ومع ذلك، أبَّان التحوُّل الحضري والتعليم عن فضاءات اجتماعية ولغوية أتاحت التواصل اللغوي المتواصل والهادف فيما بينهم. وكلغويين أردنا معرفة ما يلي: هل يتمسك شباب البدو بأنماط الخطاب التقليدية، أم صاروا يتحدثون مثل زملائهم من أهل الحضر في قاعات الدراسة وأماكن العمل؟

كيف درسنا التغير؟

تم الجمع بين نوعين من الأدلة اللغوية: الكلام الطبيعي وبيانات المسح السلوكي. فبادئ ذي بدء، سُجلت المقابلات غير الرسمية مع ثمانية مواطنين قطريين، من الكبار والصغار والرجال والنساء، ويعود أصلهم جميعًا إلى البدو. ولم تكن المناقشات مُحكَمة التنظيم بل متحررة، وتغطي موضوعات من الطفولة والحياة المدرسية وحتى الحياة اليومية، وتلتها أسئلة عن التوجُّهات حِيال طرق الخطاب المختلفة.

وعقب ذلك، تم إجراء مسح مع ستين طالبًا جامعيًا قطريًا، من البدو والحضر ومن ذوي الأصل المشترك، وطلبنا منهم تقييم اللهجات البدوية والحضرية من خلال السِمات الاجتماعية مثل المكانة والدرجة والحداثة والتَفتُّح والذكورة ونقاء الأصل. وأتاح هذا المنهج أن نرصد ليس فقط كيفية تغيُّر اللغة، بل كذلك الدوافع الاجتماعية خلف هذه التغيُّرات.

ماذا كشفت الأصوات الشابة؟

عبر مستويات اللغة، أي الأَصوات والقواعد والمفردات، تم رصد دلالات واضحة على التحوُّل في لغة البدو نحو الخطاب الحضري.

• النطق: في حين أن البدو يستخدمون النطق التقليدي في كلمة رجَّال و[ك] في كلمات مثل «كم». استبدل صغار السن، ولاسيَّما الفتيات، هذا النطق بالنطق الحضري [ي] و[تَش]، فينطقون «ريَّال» و «تشم».

• القواعد: شهدت طريقة قول كلمة «اسمك» عند التحدث إلى امرأة تحولاً، وهي سِمة بسيطة لكنها مُعبرة. فكبار السن يقولون «إسميش/إسميس». أما مع الفتيات البدويات الأصغر سنًا اللاتي خضعن للدراسة، فقد اكتشفنا أنهن قلدن النطق الحضري «إسميتش». وحتى الأفعال الرئيسية مثل «أريد» و«أرى» صارت النساء البدويات ينطقنها باللهجة الحضرية فيما بينهن. فينطقن «أبي» وليس «أبغي» مثلما كان يفعل آباؤهم وأجدادهم.

• الضمائر: وحتى الضمائر، التي نادرًا ما تشهد فروقًا، رصدنا اختلافًا بها كذلك. فقد وجدنا أن الفتيات يستخدمن الأنماط الحضرية مثل «هُما» و«هوا» على نحو أكثر من الرجال. أما النساء البدويات فينطقن ضمير المتكلم «أنا» وهي خصِيصة كلامية مميزة باللهجة الحضرية. وعندما تتغير تفاصيل طفيفة مثل الضمائر والأفعال الرئيسية، يدرك اللغويون حينئذ أننا بصدد أن نشهد إعادة هيكلة اجتماعية محورية.

قيادة النساء للتغيير

تتجلى أقوى النتائج في الفوارق بين الجنسين. فالفتيات يتجهن نحو أنماط اللهجة الحضرية بصورة أكبر من الرجال. وكشفت هذه المقابلات عن بعض الرؤى. ففي البداية، تصف الفتيات الأصغر سنًا النطق الحضري عادة بأنه «نموذجي»، أي متحضر «متمدن»، وأسهل في الاستخدام في الفضاءات المهنية والاجتماعية. وثانيًا، يرى كثيرون، ومنهم البدو أنفسهم، أن اللهجة البدوية ذكورية. مما يجعلها أقل جاذبية للنساء اللاتي يرغبن في بناء شخصية أنثوية.

أما الشباب، فعلى الرغم من أنهم ليسوا بمنأى عن التغيير، فيتشبثون بالسمات البدوية أكثر من النساء. فلم تزل الأصالة والصلابة والفخر القبلي مصدر جاذبية للرجال.

فيمَ يفكر الأفراد بشأن طريقة كلامهم؟

تكشف التوجُّهات الكثير عن تغيُّر اللهجة. ورسم هذا المسح صورة متسقة للأيديولوجيات والتصوُّرات عن اللهجات الحضرية والبدوية:

• يُنظر إلى اللهجة الحضرية باعتبارها قرينة للحداثة والوجاهة والحركة الاجتماعية. ويُولي البدو والحضر على حد سواء تقديرًا كبيرًا للهجة الحضرية باعتبارها مرادفًا للمكانة الاجتماعية والتفتُّح والحداثة.

• يُنظر إلى اللهجة البدوية كدلالة على التراث والذكورية والأصالة. وحققت درجة قوية عندما يتعلق الأمر «بنقاء الأصل» والذكورية غير إنها أقل شأنًا فيما يتعلق بالوجاهة والتفتُّح.

يُبدي كبار السن من البدو اعتراضهم على التغيُّرات، ويدَّعون أن التحوُّل إلى اللهجة الحضرية «مُشين». إلا أن شباب البدو كانوا أكثر واقعية. فصرَّح الكثير منهم أن التحدث باللهجة الحضرية يساعد على فهمهم والتحرك بأريحية في البيئات المختلطة والتوافق مع المعايير الحضرية.

مرآة للتحوُّل الذي تشهده دولة قطر

على الرغم من أن هذا البحث استند إلى دولة قطر، فهو يعكس ظاهرة أكبر. فإنه في جميع أنحاء العالم، أعاد التحضر والتعليم تشكيل التصوُّرات الخاصة بالهُويَّة. فقد تَبنى الشباب القروي أنماط خطاب ترتبط بالمدن بالنظر إلى أن المدن تتركز فيها القوة والوجاهة والفرص. أما النساء، اللواتي عادة ما يكن سفيرات للتغيُّر الاجتماعي، فيمِلَن إلى تَبني نمط خطاب متطوُّر اجتماعيًا يُنظر إليه باعتباره مقبولاً وأكثر رُقيًا. كما أن نظرة النساء البدويات إلى الأنوثة التي تفوح من اللهجة الحضرية تُعد بمثابة قِيمة مضافة.

ما أهمية تغير اللهجات؟

من الأهمية بمكان توثيق التغيُّرات اللغوية، حيث تُعد اللهجة بمثابة علامة يومية لكنها كاشفة عن تغيُّر الهُويَّات، أي أدوار الجنسين وحركة الطبقات والانتماء. وتكشف اللغة عن تفسير المتحدث للحداثة والسعي نحو هُويَّة اجتماعية جديدة. كما تفتح الدراسة المجال كذلك أمام المزيد من التحقيقات. فعلى سبيل المثال، تَبين أن اللهجة البدوية قرينة قوية للذكورة. ويطرح ذلك إمكانية انتهاج بعض الشباب الحضري سمات لغوية بدوية لكي يبدو أشد صلابة أو أكثر أصالة. وتكشف التقارير المزيد من الأبحاث لفهم انتهاج السمات البدوية ودلالتها الاجتماعية فيما بين المتحدثين من أهل الحضر.

للمزيد عن البحث امسح رمز الاستجابة السريعة: